الأميرة هيفاء والامير فخر الدين الكبير

رواية لبنانية تاريخية ادبية (تابع)

بقلم
الاب مارون ثابت اللبناني
رئيس دير المخلص في البراميّة

٥

في بيت يوسف سيفا

كان يوسف باشا سيفا يحبُّ ابنته هيفاء حباً رقيقاً مُفرطاً فوق محبته لسائر وُلده حتى الذكور ، وكان يُجلسها في مجالس انسه واحياناً في مجالس مشورته ويُخرجها معه الى الصيد ، وقد درَّبها على ركوب الخيل وعلَّمها الرماية وراضها في حمل السلاح والدرع الحديدية ، وكانت على جمال صورتها قوية البنية ممتلئة العضل ، اذا برزت الى ميدان السبق تلبس لباس الرجال ، وعلى رأسها إمَّا كوفيّة وعقال من قصب الذهب مُسبَل الطرفين على الكتفين وإمَّا خوذة من نحاس اصفر بثلاث ريشاتٍ من ذهب قائمة فوق الرأس ، وتحت الخوذة شعرها الذهبيُّ مدلًّى على المنكبين الى اسفل الظهر تلاعبه الريح على رداء من حرير بلون السماء . ولها في الفروسية طرائق واساليب تدهش الناظرين وتحيّر الفرسان المسابقين . وكان ابوها معجباً بقوّتها ورشاقتها وظرفها ولا سيما بخلالها واخلاقها العالية ولا يناديها باسمها بل بالكنايات والاستعارات من مثل يا غزالة السماء ، يا ظبية الغاب ومقلة المهاة ودمية القصر وما اشبه . هذه الدرة اليتيمة اختطفتها يدٌ أثيمة ! جانية ! وبتفريط صاحبها اذ لم يكن محتاطاً لها لكونه الاحمق الى الايام ! لو أن فتاته سبيت في حربٍ او ذهبت تطوّعاً لهان الامر . أما أن تؤخذ اختلاساً ومكراً وهي بمكرهةٍ كاذلّ الجواري-والإماء ، ولا يُعرف لها مذهب ولا مقرٌّ فذلك سهمٌ نافذٌ الى الصميم وعارٌ ما وراءه عارٌ ،

لذلك اقسم ليدركنّ خاطف ابنته ولو تحصن في معاقل النجوم . بثّ العيون في كل صوب وارسل الفرسان فرقاً في السهول والجبال . وانفذ الرسل الى الحكام والزعماء ، ورادت رسله القرى الساحلية والجبلية متنكرين وولجوا بطون المغاور واوغلوا في الغاب ، وسألوا عن ضالتهم جوارح الوحش وكواسر الطير وحيتان البحر فلم يقفوا لها على اثر . حار ابن سيفا في امره وخفيت عليه وجوه الحيلة وامسى منزله بيت مناحة يجافيه الفرح والضحك وتلازمه الكآبة والغموم .

لم يكن يجهل انّ البدويتين اللتين القيتا مخدّرًا في انوف السماء قد كان من ورائهما رجالٌ أشدّاء اختطفوا الفتاة غير انه لا يعلم هويتهم ولا بغيتهم ولا مبتغاهم ولا منفذهم الى طرابلس ولا مخبأهم قبل الحادث وبعده . ولشدّ ما كان من قلقه اذ قام في وهمه ان اولئك الخطفة الاثمة قد مثلوا بالفتاة وواروا جثتها في التراب . فلا هو يعثر عليهم فيثأر ولا على قبرها فيتجهده بغيث الدموع . تخالفت التهم وتباينت الظنون وتناقضت الاخبار لا متآلفة ولا متلاحمة . فقيل رُؤيت بين رجالٍ مشرّقين وقيل بين مشئلين . وقال بعضهم سمعنا ان حضرية كانت بين بدويتين في طريق الشهباء وقال آخرون في طريق دمشق وقيل ظهرت جثة فتاة عند مصب نهر الكلب ، وقيل وجدت بقايا جثة مفترسة في غابة الشعرة . الى غير ذلك من الاقوال .

كان ابن سيفا يستقصي عن هذه الاخبار فلا ينتهي الى شيء وقيل له انها مخبوءة في بعض مناسك قديمًا اثارةً لخاطره على المتزهدين سكان الكهوف او في دير قزحيا خبّأها بعض المقدمين ، فركب في نفرٍ من رجاله وطاف الوادي المقدّس فدهش من قداسة النسّاك وما يُعانونه تطوّعاً من طول التأمل والسجود والصلاة وما يكبدونه انفسهم من ضروب الحرمان والجوع والعطش والجلد ولبس المسوح ، فحسدهم على حياتهم السماوية ، واعظمَ ايمانهم وطلب دعاءهم من اجل الفوز ببغيته ، وانصرف الى دير قزحيا وكان هناك اسقف وجماعة من الرهابين المتنسكين فلاقاه الاسقف الى الباب وسأله ان يخلع سلاحه رعياً لحرمة المكان ففعل وأمر رجاله بانتظاره عند المدخل وصعب الاسقف الى قاعة فسيحة فيها من الاثاث ما يُنبئ بالزهد ويتلاءم والفقر ، وقرع الناقوس

فأقبل الرهبان في ملابس الصوف الخشنة وهم يمسحون العرق عن وجوههم آتين من اشغال الزراعة المتنوعة فسلموا على ابن سيفا مرحبين وجلسوا له وحدثوه فلما وقف على سيرتهم النسكية الضيقة وشاهد ملابسهم الزهدية الخشنة وعرف انصرافهم الى الصلاة وعكوفهم على الحراثة والزراعة تحصيلاً لقوتهم بكد ابدانهم ، ورأى في وجوههم امارات السذاجة والصدق وصفاء الطوية استحيا ان يخبرهم بسبب قدومه اليهم وقال انه آتٍ ليزور مقام القديس انطونيوس التمس ان يهديه الى ابنته الضائعة واوقفهم على ما كان من امر اختفائها الا ما قيل له من انها قد تكون محبوسة في ديرهم . فحزن جميعهم لحزنه وتألموا لمصابه ودعوه للصلاة معهم امام مذبح القديس فاجابهم الى ذلك . ثم اخرج كيساً معقوداً على نقد والقاه على درجة المذبح وخرج في قلبه شيء من التعزية والرجاء . وعُرض على الطعام فامتنع شاكراً وودّع المطران والرهبان وكرّ راجعاً الى منزله فبلغه بعد غياب الشمس وطلب طعاماً فاكل واتته حاجة النوم فرقد ، ولما استغرق رأى في الحلم كأنّ انطونيوس الذي عاين صورتهُ في كنيسة الدير يُشير بعكازه الى الجنوب ويقول له :أرأيت هذا الرجل القصير القامة المهيب المنظر ، انه مخلّص ابنتك ، طب نفساً انها ستعود اليك . قال: شكراً لك يا سيدي لقد أرجعتَ روحي اليّ ، واستيقظ . فجعل يردّد في ذهنه ما رأى وما سمع ويعارض صورة الرجل الذي قيل عنهُ « إنه مخلّص ابنتك » فلا تماثل وجهاً من الوجوه التي يعرفها ، ثمّ قصّ حلمهُ على مدبّره منصور فقال مدبّرهُ : أبشر يا امير ! انّ حلمك من الله فتوكّل عليه وابعث رسولاً الى الامير فخر الدين لعلّ الاميرة هيفاء في بعض أنحاء امارته . فان كانت ثمّ عنده او في بلد آخر تمّا لهُ عليه سيطرة ونفوذ ، فما هو إلّا القليل حتى يسكن خاطرك وتدرك منيتك . ان الرجل كبير المروءة يعوانٌ على الخطوب ولهُ في الرعية علمٌ لا تفوتهُ شاردة ولا واردة . فقام الباشا لساعته وكتب رسالةً انفذ بها رسولاً الى فخر الدين ، وبعد ثلاثة ايام جاءه هذا الجواب :« أسكنّ اليتا فعد بثثنا العيون ، حبذا ان تكون ضالتك في أرضنا فيكون العثور عليها ميسوراً وقصاصُ المعتدين صارماً رادعاً ». فأمّل ابن سيفا خيراً . ثمّ كرّت الايامُ وما ازدادت القضيّة إلا غموضاً .

٦

آل معن

الامير المعني فخرالدين الثاني هو سلالة الاسرة المعنيَّة الكريمة . استوطنت لبنان منذ القرن الثاني عشر وتعاقب امراؤهـا على حكم الشوف الى اواخر القرن السابع عشر . نشأت في بلاد نجد وديار ربيعة من شبه جزيرة العرب من سلالة ربيعة الفرى بن معدّ بن عدنان المنتسبة اليه العرب المستعربة الذين ينتهي نسبهم الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل . وممن انجبت قبيلة ربيعة الامير ايوب الذي اشتهر ببسالته ونفوذ كلمته وأعقب أحد عشر ولدًا ماثلوه بسالةً وسطوةً وعزًا . فلما عظم شأنهم وذاع صيتهم حسدهم سادات ربيعة ومـا زالوا يناوئونهم حتى نفَّروهم الى العراق فنزل الايوبيُّون الجزيرة الفراتيَّـة واستوطنوها وتكاثروا الى ان نبغ منهم الامير ربيعـة فهجر الجزيرة وخيَّم في الجبل الاعلى من الديار الحلبيَّة وأحرز شهرةً بعيدةً . وخلفـهُ ابنهُ معنٌ وهو جدُّ الاسرة المعنيَّة تزوَّج بابنـة الامير نعمان التنوخي من معرَّة النعمان واصبح التنوخيُّون من حلفائه وانصاره . وكان أخا جرأةٍ وحزم واقـدام فذهب له صيتٌ . وأرسله غازي أمير الترك عام ١٠٩١ لقتال بلدوين الفرنسي احد ملوك الافرنج الصليبيين في الجبل الاسود قرب انطاكيـة ، فخانه الحظ ومزّق الصليبيُّون جنوده فانهزم ببقيَّةٍ من رجاله واعتصم بطغتكين صاحب دمشق الذي كان يحارب الافرنج في ضواحي حلب فأرسله بعشيرته وأحلافه الى البقاع من اعمال دمشق ومعهُ الامير منذر ابن حميه نعمان التنوخي فخيَّموا في ذلك الاقليم وكان حكَّامه الجنادلة فقاتلوهم في مواقع كثيرة . ولمَّا عـاد طغتكين الى دمشق صارحهُ معنٌ برغبته في استيطان هذه البلاد ، فقال اذن تترك السهل الى مشارف لبنان لشنّ الغارة على الافرنج في الثغور البحرية ، فسار بقومـه الى جبل لبنان وأنزلهم في صحراء بعقلين وجاء قرية عيبه وهي مقرّ الامراء التنوخيين فاكرموا مثواه لما بينهم وبينهُ من المصاهرة منذ كانوا معاً في الديار الحلبيَّة . واستنجدهم محلًا لسكناه فصعد به الامير مجتر التنوخي أمير الغرب الى « مُطيّر عيبه » واراه البقعة الواقعة بين نهري الصفا والباروك وكانت بلقعاً وقال لهُ :

« شوف » بلغة العامة فسمّي الموضع « الشوف » . قال الاديب الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف صاحب مجلة الآثار : وربّما هي محرَّف الجوف لوقوع تلك البقعة في جوف لبنان . أو الشوف أي رؤوس الجبال . ولم يكن قبلهم مأهولاً من الشوف إلا نواحي الغرب والجرد حيث اقامت القبائل التي قدمت لحراسة السواحل كالتنوخيّين وفروعهم .

وللشوف اقسامٌ واسماء وهي شوف صيدا ومنه عين زحلته . وشوف الحراذين ومنهُ عيتنيت في البقاع والشوف البياضي (غربي البقاع) ومنهُ زحلة . ومن أسمائه جبل ابن معن وجبل الدروز ، ومن اسماء بعض نواحيه الشوفان والشويفات . وكان في القديم سبع مقاطعات : الشوف السويجاني والحيطي والمناصف . والشحّار . والغرب الاعلى والادنى . والجرد . والعرقوب الاعلى والادنى . والمتن[1] .

وعاد الامير معن الى قومه في صحراء بعقلين ولبثوا مدّة في الخيام ، ثمّ اختطوا بلدة بعقلين وجعلوها قاعدتهم وبنوا المساكن الحجريّة واستعمروا تلك النواحي بمساعدة التنوخيّين ، واشتهروا بالكرَم وحسن الجوار فتقاطر الناس الى بلادهم من انحاء حوران والشام وحلب ونواحي لبنان هرباً من الافرنج فأسكنوهم بينهم وتولّى معنٌ امارة الشوف مدى ثلاثين سنة وتوفي عام ١١٤٩ وخلفهُ ابنهُ يونس فنسج على منواله في تعشّق المكارم والدفاع عن احلافه فاستتبّت الامارة للمعنيّين .

ولما نزح الشهابيُّون من حوران الى وادي التيم ، بدر الامير يونس لمحالفة زعيمهم الامير منقذ ، وكان هذا بطلاً شديد المراس قاتل الافرنج واكرههم على الجلاء عن تلك الجهات فأمّره عليها السلطان نور الدين عام ١١٧١ ، وفي السنة الرابعة لامارته استقدمه الامير يونس فقدم بألفي فارس من قومه أناخوا جمالهم قرب نهر في صرود الشوف فسمّي البارود اي المركع . وخفّ الامير يونس برجاله للقائهم ورحّب بهم واقامَ لهم مهرجاناً عظيماً مدّة ثلاثة ايام . ثمّ أتى بهم الى داره في بعقلين وعقد لطيبة بنته على محمد بن منقذ ، وجُددت المحالفة بين الاسرتين . وكان الشهابيُّون ظهراء المعنيّين في حروبهم . اغتالت المنون الامير يونس في هذه السنة وخلفهُ يوسف وخلف هذا ولدُهُ سيف الدين .

---

١) عن مجلة الآثار

وظلت الامارة تنتقل بالخلافة من والد وحيد الى ولد وحيد ، من سيف الدين هذا الى الامراء عبدالله فعلي فحسّد فسعد الدين فعثمان فأحمد فملحم . وهذا خلّف ولدَين يوسف وعثمان، وتوفي يوسف بلا عقب وانحصرت الامارة بعثمان وخلفهُ ولدهُ فخرالدين الاول وخلف هذا ولدهُ قرقاس وتوفي عن ولدين فخر الدين الثاني الملقّب بالكبير (محبوب هيفا. وعدوّ ابيها) ويونس أخيه . ورزق فخر الدين اولادًا لم يبقَ بعدهُ منهم الا الامير حُسين في الاستانة ولم يعد الى لبنان .

بنى المعنيُّون حكمهم على العدل وسوَّروهُ بالكرم فرسخ وعلا ، وكانوا محبوبين في الرعيَّة لاستقامة مسلكهم فيها وقيامهم بمصالحها وحفظهم لها من مظالم العدوّ ومطامعه . فكان الشعب ملتفًا من حولهم مرتاحًا الى حكمهم مسلِّمًا اليهم مقاليد أموره ، فاذا دُعي لردّ غارة او لغزو او فتح هبَّ كلُّهم هبَّةً واحدةً وانقضّوا على العدوّ انقضاض الصاعقة ، مفدين الوطن والامير بالارواح والمهج . وكذلك حلفاء المعنيّين كانوا يحبونهم ويركنون اليهم لما يتجلّى لهم من اخلاقهم الكريمة ورعايتهم العهود واستساكهم بالولاء والوفاء وبذلهم المعروف فوق اعطائهم الحقوق . فيلاقي المعنيُّون منهم ما عدا الموالاة والمصافاة ، المبادرة الى مناصرتهم في الحروب .

أبعدُ الامراء المعنيّين شهرةً فخر الدين الاول وحفيده فخر الدين الثاني، فالاول كان على حكم الشوف لمّا فتح البلاد السوريَّة السلطان سليم الاول عام ١٥١٦ . وفي ذلك الزمان كان على سوريا والٍ من قبل المماليك يُدعى الغزاليّ غدرَ بهم وانضمَّ الى العثمانيين فولّاهُ السلطان سليم على دمشق وقلّده نيابة حمص وفلسطين . فتعقَّب المماليك الى مصر وانتزعها من أيديهم وكرَّ عائدًا الى حلب ، وقبل ان يدخلها اشتعلت الثورة في سوريا فقتل الغزاليُّ رجلين من زعمائها غدرًا هما ابن الحنش زعيم العرب وابن حرفوش زعيم البقاع . ثمَّ قاتل غيرهما من الثوَّار وظاهرهُ فخر الدين الاول فحالف النصر ألوية الغزالي فسُرَّ السلطان من الامير . ولمّا نزل الامير الشام للتسليم على السلطان فتنهُ بفصاحة منطقه وطلاقة لسانه وجمال خلاله ، فأقرَّهُ على حكم الشوف وقدَّمه على سائر حُكّام لبنان . فعظُم شأنه وتجلّت هيبتهُ . وشُرَّ للفتح ، فمدَّ سلطانهُ

من حدود يافا الى طرابلس، وأمّن البلاد، وحكم العدل، فتفيأ الناس في عهده ظلّ الراحة، وارتووا من سلسبيل السلام، وكان اميرهم فخرالدين قد وشّحه السلطان سليم بلقب «سلطان البرّ» مكافأةً على انتصاره له في موقعة مرج دابق[1].

وتوثقت بين المعنيّين والدولة العثمانيـة عُرى الولاء، غير ان والي الشام كاد للامير فخر الدين فتمكن من قتله عام ١٥٤٤. فخلفهُ ابنهُ الامير قرقاز. وكان يكره العثمانيين كرهاً شديداً لاغتيالهم اباهُ ولما يرتكبهُ عمّالهم وجنودهم من الجور والنذالة والافساد. وكان بينهُ وبين بعض الامراء من حكّام لبنان عداوة ومنافسة ومنازعة على السلطة أفضت الى وقائع دامية وحزازات دائمة، ولم يكن ليسالم أحداً من عمّال العثمانيين وأحلافهم.

صرف من همه الى تأسيس حكومة نظاميّة في لبنان، ونسج على منوال ابيه في التوفيق بين الرعيّة واستمالة المسيحيّين واقامة العـدل وتأدية الجزية للحكومة واكرام الفضلاء وتقريب الشعراء الى سائر ما يُجمّل الحاكم ويثبّت حكمهُ ويحبّبهُ الى رعاياه. وكان نظام الاحكام ان ينتخب الامير الاقطاعيّين فيتولّوا الفصل في الدعاوى الحقوقية والجزائية وهو يتصرّف في الاحكام العليا من قتل ونفي وتمليك ارض وضبط مال وما اشبه. وكان الناس في ذلـك العهد حزبين: القيسي وعلى زعامته المعنيّون واليمني وعلى زعامته السيفيّون. وعلَمُ القيسيّين احمر وشارتهُ قرنفلة حمراء. وعلَمُ اليمنيّين ابيض وشارتهُ زهرة

١) جرت هذه الموقعة بين العثمانيين والمماليك في مرج دابق عند حلب في ٢٤ آب سنة ١٥١٦ وذلك ان الاتراك كانوا قد استولوا على الاناضول والقسطنطينية من عام ١٤٥٣، وعظموا صولةً وطولاً فطمحت نفس السلطان سليم الاول الى ضبط الخلافة في قبضته بعد ان يبيد اليها ممتلكاتها والى الاسلام وحدته السياسية. فأبرم عزمه على مهاجمة المماليك، فاقتسم بسالة الفرس الشيعيّين على المسلمين السنيّين وبالقعود عن تأمين طرق الحج. فزحف بجيوشه على حلب، وزحف الغوري سلطان المماليك بعساكره فالتقى الجيشان في مرج دابق، واشتد القتال بين الفريقين واستبسلا وتضافر على المماليك بأس الانكشارية وخيانة خاير بك نائب حلب، فطلق النصر برايات العثمانيين، وتوارى السلطان الغوري وفتحت المدينة ابوابها للسلطان سليم فدخلها بغير قتال. ودانت له سائر المدن من حماة وحمص الى دمشق وطرابلس وصفد وقايتاي واورشليم، فطرد منها المماليك وضبط املاكهم، ثم انقضّ على مصر، فأدّبته الطاعة ونصب فيها رايته المظفرة. وجاءه شريف مكّة خاضعاً والقى اليه مفاتيح الحرمين.

خشخاش بيضاء ، وكانت سوريا في عهد المماليك مقسّمة الى ست ممالك ونيابات . هي حلب ودمشق وحماة وطرابلس وصفد والكرك شرقي الاردن. فخلّاها السلطان سليم بعد فتحها على هذا التقسيم ، وأقرّ الغزالي على نيابة دمشق وولّاه سائر النيابات إلّا نيابة حلب أسندها الى باشا تركي . فلما توفي السلطان سليم نادى الغزالي بنفسه ملكاً لسوريا بلقب (الملك الاشرف). فسيّر عليه السلطان سليمان حملةً من الانكشارية بقيادة فرهاد باشا فقتلوه في قابون قرب دمشق في شهر كانون من سنة ١٥٢١ ، واجتاحوا المدينة وضواحيها وأنزلوا باهلها العبَر، والقوا الرهبة على سكان البلاد حتى صار اسم الانكشارية هَولًا وفزعةً . ولفظا « انكشاري وقبضاي » لا يزالان في لبنان مترادفين الى اليوم. وعند ذلك قسموا سوريا ثلاث ولايات :الشام وطرابلس وحلب وجعلوا ولاتها من الاتراك . ولعلّ السلطان سليم نفسه قد قسم سوريا الى خمس ايالات : حلب والشام وطرابلس وصيدا وفلسطين، وقسم الايالات الى ألوية، وكان الامراء والمقدّمون والمشايخ يتولون المقاطعات (مجلة الآثار . وفي سبيل لبنان)[1] .

وفي عهد امارة فرقاز اضطرب حبل الامن في انحاء لبنان باحتدام المنازعات بين القيسيّين واليمنيّين ولاسيما في شماليه بين الصافيّين والسيفيّين ، وكانت سياسة الباب العالي لا تتصدى لما يحدث من التقاتل بين الحكام في

---

١) كانت عشائر لبنان أربع طبقات : الامير فالشيوخ فالمقدم فالشيخ . وكان من امرائه في ذلك العهد التنوخيّون قيسيّين ويمنيّين . والارسلانيّون والمعنيّون والشهابيّون وآل علم الدين من حكام جنوبيّه ، والسيفيّون والصافيّون والمرعبيّون والراسخاشيّون من حكّام شماليه . والحرفوشيّون من حكام بعلبك والبقاعين . ومن مقدميه اللمعيّون في كفرسلوان والصوافيّون في الاشبانية والمزهريّون في حمانا ، وبنو علي الصغير في بلاد بشاره ، والشاعريّون في تولا البترون . ومن مشايخه الحاديّون والعاديّون والنكديّون والتلحوقيّون . وبينهم طبقات أُخر . منهم الامراء الحمنيّون سكان فتقا والحمراء ومقدمو الازواق التركمانيّون في كسروان والمشايخ الحماميّون في جبيل ، وغيرهم من المسلمين والشيعيين والدروز ، واشهر مقدمي المسيحيين مقدمو جبّة بشري وجاج والباقوره وأيطو والشاهلة وغيرهم .. ينحازون جميعهم الى احد الحزبين القيسي واليمني ..ومن مشاهير الامراء المجاورين آل طربيه الحارثيّون الطائيّون في فلسطين وآل الاعوج في حماة وما اليها ، وغيرهم . (عن مجلة الآثار)

سوريا ولبنان فتخلّيهم يتطاحنون ، وهمّ السلطان مقصورٌ على جمع الضرائب والحؤول دون ثورة الحكّام عليه . فاذا أنس من احدهم تقصيرًا في اداء المال المفروض أو خشي منهُ خطرًا على جانب من المُلك ، أثار عليه عدوًّا وناصرهُ عليه حتى يكسر من شوكته ويُسلمه الى الذلّ والهوان . وكان للدولة معتمدٌ في طرابلس برتبة باشا بيده مقاليد حكم المدينة والاقليم مع مراقبة بلاد النصيريّة وجبل لبنان وتأمين الطريق الى حلب ولاسيّما عند جون عكار حيث كانت القوافل لا تأمن الخطر . وكان جميع الامراء اللبنانيين راضين بحكم السلطان العثماني يؤدونه الجزية وهو راضٍ بهذا القدر من الخضوع غير متصدٍّ لاستقلال بعضهم بالحكم على عادة اهل البلاد . واكثر اللبنانيين استقلالًا الموارنة والنصيريّة فلم يكن أمرهم الى العثمانيين بل الى مقدّمين وطنيّين عليهم للعثمانيّين جباية الضرائب ، وما زالت الحال على ذلك الى ان تصدّى لصوصٌ في جون عكّار لقافلة انكشاريّة حاملة مال الضريبة من مصر وسوريا الى الاستانة فسلبوهم ورسعوهم ضرباً وتهشيماً عام ١٥٨٤ . فأمر الباب العالي جعفر باشا الطواشي حاكم طرابلس بان يصادر السيفيّين امراء عكّار فحطّمهم وأحرق منازلهم . ثمّ وشى بالمعنيّين والسّافيّين متهماً اياهم بالتمرّد وبالغ في ايغار صدر الدولة على المعنيّين فثار ثائرها وأوعزت الى ابراهيم باشا والي مصر وهو صهر السلطان مراد ابن السلطان سليم ، ان يجتاح الشوف بحجة ان المعنيّين يعصون المجرمين اللاجئين اليهم من سوريا ومصر . فزحف ابراهيم بعساكر من مصر وقبرس وحلب ودمشق وخيّم في مرج عرجوش تحت زحلة وأرسل الى الامير قرقاز يطلب منه تسليم سالبي الخزينة ونفقة العساكر . وكان قد قطع طريق البحر والبقاع وضايق الدروز وقتل خلقاً كثيرًا . ولم يكن للشوفيّين قِبَلٌ بصدّ جيشه الواثب كالنمرة ، ففرّ الامير قرقماس ببعض رجاله الى شقيف تيرون المعروف بقلعة نيحا على مسيرة ساعة من جزين الى الشمال . وما لبث ان توفي . قيل من شدة تأثره من تخلّي امراء لبنان عنهم وانحيازهم الى ابراهيم باشا . وقيل بالسمّ انتحارًا . وقيل ان الاعداء اهتدوا الى دواة مطمورة كانت الماء تجري فيها من معين الى بئر في القلعة ، فألقوا

في الماء سمًّا أو دمًا ففسد ماء البئر فهلك الامير . والاصح انه مات من الغم والفزع . ثم ان وفدًا من الدروز قدموا الى عين صوفر لمفاوضة ابراهيم باشا والنظر في مطالبه لاجل ان يمكنوه من ميسورها فيرحل بعساكره عن بلادهم فأبت نفسه إلّا الغدر فأمرَ بهم فتذبحوا عن آخرهم وكلُّهم من الاعيان . ولم يترك امامهُ الا الامراء آل تنوخ . وخلَّف قرقماز ولدين حدثين فخر الدين ويونس ، فاشفقت عليهما أمُّهما من الباشا ابراهيم فطلبت الى الحاج كيوان نعمه الديراني مدبّر ابيها ان يُخبّئهما ، فسرى بهما الى قرية بلّونه في كسروان ونزل بهما على صديقه الشيخ أبي صقر ابراهيم الخازن من اعيان الموارنة فتخفّى لهم وحضن الاميرين ورَبّاهما احسن تربية . غرس في قلبيهما الفضائل الادبية والاخلاق العالية وابقاهما عنده محبوبين الى ان شبّا . فاخذهما خالهما سيف الدين التنوخي وردّ عليهما امارة الشوف ارثهما من الاجداد . فصارت الى اكبرهما سنًّا فخر الدين .

(لها صلة)